إسهام الإكتشافات الأثرية الأخيرة بإيفري ن عمر أو موسى (وادي بهت، الخميسات، المغرب) في الكشف عن وجود حضارتي النحاس والبرونز بالمغرب خلال عصرماقبيل التاريخ

أ.د. مصطفى أعشي♦

تتوزع المواقع الأثرية والأبنية التاريخية على طول وعرض هضاب زمور، إلا أنه مع كامل الأسف، فإن أغلب الساكنة لا تعرف شيئا عنها. هناك مواقع أثرية تعود إلى أكثر من مليوني سنة، استخرج منها الباحثون أدوات حجرية عتيقة كالحصاة المشذبة والأداة الأشولية، وبقايا حيوانية كوحيد القرن والفيل والخيليات من موقع وادي الخميس بالخميسات وموقع بيرأوغيول بتيداس، الواقع على بعد ٣٠ كلم جنوب مدينة الخميسات؛ ومواقع ما قبل تاريخية يتجاوز عمرها مليون سنة، تعود للعصر الحجري القديم الأدنى كموقع الضاية الحمراء بتيفلت الواقعة غرب مدينة الخميسات بحوالي ٣٥ كلم. كما أن هناك مواقع تعود للعصر الحجري الحديث، كمواقع وادي بهت التي يتجاوز عددها ٢٦ موقعا، وتقع على بعد ١٨ كلم شرق مدينة الخميسات، بالإضافة إلى موقع أيت واحي على بعد ١٠ كلم غرب مدينة الخميسات، وموقع ضاية الرومي على بعد ١٥ كلم جنوب مدينة الخميسات؛ ومدافن تعود لعصر ما قبيل التاريخ بسيدي علال البحراوي وخاصة ضريح البحراوي الذي لم يعد له وجود اليوم، وهو يقع على بعد ٥٠ كلم غرب مدينة الخميسات و٣٠ كلم شرق مدينة الرباط. بجانب مواقع أثرية ومباني تاريخية تعود الى الفترات الإسلامية وخاصة لعهد الدولة البورغواطية والدولة المرابطية والدولة الموحدية والدولة المرينية والدولة السعدية والدولة العلوية، كقنطرة الفلوس وتيغرمت ودار أم السلطان وقصبة أيت عبو وغيرها. ونظرا للغنى الأثري لهذه المنطقة، فقد أثارت اهتمامي منذ أن بدأت أعي ماذا تعني الآثار وما ذا يعني التراث؛ مما جعلني أشرع في التحريات في المنطقة منذ بداية اختصاصي في الأثار.

١- التحريات

شرعت في التحريات بهضاب زمور منذ سنة ١٩٧٤، حيث تمكنت من وضع تقرير أولي مع خريطة أولية لتحديد مختلف المواقع المعروفة سابقا والتي اكتشفتها لأول مرة، إلا أن ظروفا قاهرة حالت دون الاستمرار في التحري الميداني، ومما جعلني أؤجل العمل الميداني إلى الوقت الذي تسمح به الظروف الإدارية والعلمية. لكن التأجيل، لم يكن يعني التوقف عن التحريات واستفسار شيوخ القبائل عن الأطلال

♦ كلية الآداب جامعة محمد الخامس الرباط المغرب.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

والآثار التي تقع في مجال قبائلهم. وبمجرد ما تغيرت هذه الظروف انطلاقا من سنة ٢٠٠٥ ، أسس باحثون مهتمين بآثار منطقة زمور، مجموعة للبحث والتنقيب عن هذه الآثار ، انطلاقا من سنة ٢٠٠٥ تحت إسم :

" **العصر الحجري الحديث وعصرما قبيل التاريخ بهضاب زمور**"

وهي مجموعة علمية مغربية صرفة، تتكون من الأساتذة الدكاترة **مصطفى أعشي** (كلية الآداب الرباط) **وعبدالواحد بن نصر ويوسف بوكبوط وفتحي عماني** (المعهد الوطني لعلوم الآثار والتراث).

انطلقت التحريات سنة ٢٠٠٥ وتمكنت مجموعة البحث، بعد الاستفادة من النتائج والتحريات السابقة، من تسجيل حوالي ٢٦ موقعا أثريا في منطقة لا يتجاوز طولها ١٠ كلم، من بينها بالطبع موقع إيفري ن عمر أو موسى وموقع معدن الملح والقرى الما قبل التاريخية المحصنة البالغ عددها ثلاث.

احتاجت **هذه** المواقع إلى وقت معين قصد إجراء دراسات لتقييم أهميتها وتحديد خطة زمنية لبداية التنقيب الأثري فيها. وقد تم اختيار إيفري ن عمرو أوموسى للقيام بالتنقيب الأثري فيه، اعتمادا على مجموعة من المؤشرات التي كشفت عنها التحريات. وهذا ما حدث فعلا انطلاقا من موسم شهر أبريل سنة ٢٠٠٦ .

٢- تنقيبات إيفري ن عمرو أو موسى: (صور رقم ١ و ٢)

يقع هذا الموقع على الطريقة الوطنية رقم ٦ التي تربط بين مدينة الخميسات ومدينة مكناس، وعلى بعد ١٨ كلم شرق مدينة الخميسات و ٤٠ كلم غرب مدينة مكناس.

عرف هذا الموقع لحد الآن (٢٠١٠) ثلاثة مواسم تنقيبية منذ اكتشافه سنة ٢٠٠٥: أبريل ٢٠٠٦ ونوفمبر ٢٠٠٧ ومايو ٢٠١٠. ولم ننقب سنتي ٢٠٠٨ و٢٠٠٩ نظرا لانعدام الموارد المالية.

مكنتنا هذه الحفريات التي تدوم شهرا من كل سنة ، بمشاركة طلبة الماسترز والدكتوراة منالمغرب وسوريا وإيطاليا وإسبانيا وفرنسا، من الحصول على وثائق وشواهد ومؤشرات تؤكد معرفة أبناء هذه المنطقة، وبالتالي المغرب القديم، **بحضارة العصر الحجري المعدني وبحضارة الفخار الجرسي الشكل.**

فقبل سنة ٢٠٠٩، وعند اكتشافنا لثلاثة قبور تعود للعصر الحجري المعدني، كان اعتقادنا أن المغارة استخدمت كمسكن. لكن مع اكتشافات سنة ٢٠١٠ والتي تمثلت في ٤ قبور جديدة وإرهاصات بوجود مقابر أخرى، أخذت التساؤلات تطرح بين الباحثين أعضاء البعثة العلمية: **ألا يمكن أن تكون هذه المغارة قد استخدمت في وقت ما كمقبرة فقط، خاصة وأننا اكتشفنا قرية محصنة تعود للعصر الحجري الحديث فوق المغارة مباشرة؟**

تتميز المستخرجات الأثرية في إيفري ن عمرو أو موسى بجودة صيانتها مما سمح لنا بالتعرف على العديد من الأدوات والمواد التي كانت يستخدمها إنسان هذه

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

المنطقة في حياته اليومية كالمغرة (الأوكر) المستخدمة في صبغ الجثامين خلال طقوس الدفن، ومواقد النار التي توقد لتطهير روح الميت، و الأدوات المعدنية المصنوعة من النحاس والرصاص، والأدوات المصنوعة من العظام بجانب بعض بقايا المواد الخام من نفس المعادن. وهذا ما دفعنا إلى الإفتراض بأن قاطني إيفري ن عمرو أوموسى كانوا يمارسون عملية تذويب النحاس والرصاص.

عاش انسان إيفري ن عمرو أوموسى خلال المرحلة الإنتقالية بالنسبة للإنسان، والمتمثلة في انتقال الإنسان من استعمال أدوات حجرية إلى استعمال أدوات نحاسية ثم بعد ذلك برونزية.

ولأول مرة تكتشف **أداة نحاسية موثقة أثريا**، وهي المعروفة علميا ب **بالميلا**،(صورة رقم ٣) نسبة إلى موقع أثري برتغالي اكتشفت فيه لأول مرة، وهي عبارة عن رأس رمح؛ لأنه سبق أن تم العثور على هذه الأداة في مواقع أخرى بالمغرب، لكن دون استراتيغرافيا أثرية. وهذه البالميلا تتميز بها مرحلة العصر الحجري المعدني ومرحلة الفخار الجرسي الشكل في أوروبا والمغرب. وقد تم العثور واستخراج بضعة بالميلات في بعض المواقع المغربية، مما جعل الباحثين الأجانب وحتى بعض الباحثين المغاربة يصرون على أن العصر الحجري المعدني أو عصر البرونز بالمغرب مستورد من أوربا؛ لكن الاكتشافات الأثرية الأخيرة، أثبتت شيئا أساسيا وهو أن المغرب وأوروبا كانا في نفس المستوى الحضاري. ومن الصعب أن نذكر الآن أي المنطقتين أسبق وأيهما أثر في الآخر، في انتظار عمليات التحقيب بواسطة الكاربون C ١٤ لعينات من الفحم والعظام.

والجدير بالذكر هنا أنه أجريت تحليلات مخبرية على مادة النحاس المحلية المكتشفة في الموقع، فاتضح أن خصائصه محلية ولا علاقة له بنحاس شبه الجزيرة الإيبيرية. وهذا ينفي المسلمة السابقة التي تؤكد أن عصر النحاس والبرونز بالمغرب أجنبي، أي أنه آت من الخارج؛ وكأن سكان المغرب الأقدمين كانوا ينتظرون التأثيرات الآتية من أوروبا بالدرجة الأولى.

وبجانب البالميلا عثر بالموقع على كسرات من الفخار الجرسي الشكل (صورة رقم ٤)، الذي كان الباحثون الأجانب يعتبرونه فخار أوروبيا دون مناقشة. لكن خلال عمليات التنقيب استخرجنا ادوات عظمية كانت تستخدم لتزيين وزخرفة الفخار الجرسي الشكل(صور رقم ٥أ و٥ب)، مما يعني أنه من صنع محلي وليس مستوردا، وأن وجوده بالمغرب فقط دون باقي افريقيا، لا يعني إطلاقا أن أصله من أوروبا، إذ أنه قد يكون العكس، أي أن أصله من المغرب ثم انتقل إلى أوروبا. إلا أن هذا الافتراض لا يزال يحتاج الى المزيد من التحاليل المخبرية والدراسات الأثرية المقارنة.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وفيما يتعلق **بالمدافن** فهي تعود الى المرحلة المعروفة بالعصر الحجري المعدني أو العصر الحجري النحاسي(٣٠٠٠-١٨٠٠ سنة ق.م).وقد تم لحد الآن (مايو ٢٠١٠) إزاحة التراب عن سبعة هياكل عظمية دفنت بعناية فائقة وفق عادات وطقوس جنائزية خاصة بهذه المجموعة البشرية التي كانت تستوطن هذه المغارة(صور رقم ٦أ و ٦ب).

أبرزت عمليات التنقيب الدقيق أن كل الهياكل العظمية دفنت على الطريقة الجنينية، موجهة نحو شروق الشمس، كما وضعت رحى صغيرة لطحن الحبوب من الحجر على صدر أو على رأس الميت؛ هذا علاوة على أن القبر عبارة عن حفرة مدعمة بأحجار لحماية الميت (صورة رقم ٧).

لقد تم استخراج العديد من الأدوات المصنوعة من عظام الحيوانات كالإبر(صورة رقم ٨) والمخارز من النحاس (صورة رقم ٩)، وعقد من العاج على شكل ثعبان (صورة رقم ١٠)، بجانب كسرات من الفخار المعروف بالفخار الجرسي الشكل (صورة رقم ٥)، والذي يميز مرحلة العصر العصر الحجري المعدني في أوروبا والمغرب فقط؛ والجدير بالذكر هنا أن هذا الفخار لايوجد إلا في المغرب وأوروبا مما يعني وجود علاقات وتبادل تأثيرات بين المنطقتين.

عاش إنسان إيفري ن عمرأوموسى وسط بيئة غابوية تتسم بغنى ثروتها الحيوانية، مما سمح لنا باستخراج بقايا عظام الحيوانات التي كان يقتات عليها، فلاحظنا وجود بقايا حيوانات انقرضت من شمال افريقيا، كالدب الأسمر والبقر الوحشي والبوبال وبقايا حيوانات لا تزال تعيش الى اليوم في المغرب، كالفهد والنعام والقطط والكلاب الوحشية والضباع والثعالب والخنازير البرية، الى جانب عظام السمك سواء النهرية أو البحرية، منها سمك القرش. ومن المعروف أن المحيط الأطلسي يبعد عن هذه المغارة بحوالي ١٠٠ كلم. وهذا ما يزكي انفتاح هذه المجموعة البشرية على المناطق البعيدة، بحيث أضافت منتجات البحر في طعامها، مما سمح بتنوع النظام الغذائي لساكنة إيفري ن عمرو أوموسى.

وما كان هذا التنوع الغذائي ممكنا لولا توفر سكان المغارة على منتوجات يقايضون بها السلع التي يستوردونها من ساحل المحيط. ومن المنتوجات المحلية الملح ، إذ ان المنطقة لا تزال إلى اليوم تستخرج الملح من مناجم محلية والذي يباع في الأسواق الأسبوعية المحلية.

ومن المعروف تاريخيا أن الملح كانت له مكانة متميزة خلال العصور القديمة وطيلة العصور الوسطى، نظرا لتعرف الإنسان على قيمة الملح في الحفاظ على لحوم الحيوانات التي كان يصطادها، وكذا على الطعم الخاص الذي يعطيه الملح للطعام المطبوخ بها، هذا فضلا على استعمالها في صيانة وتنظيف جلود الحيوانات التي كان يقنصها ويستعمل جلودها كملابس. وكان الذي يملك معادن الملح يعتبر كالذي يملك منجما للذهب، لأنه بإمكانه مقايضة الملح مع أي سلعة يريد.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وأهمية الملح ودورها في غنى سكان المغارة واضح، سواء من حيث المكتشفات الأثرية وقيمتها وصناعتها المتقنة؛ هذا فضلا على أن أحد المدفونين عاش أكثر من ٤٥ سنة ، وهذا يعني أنه كان يتوفر على كل ما يحتاجه عن طريق مقايضته بالملح التي كان يتحكم في استخراجها

المهم، أن البعثة العلمية المغربية التي تقوم بالتنقيب في إيفري ن عمرو أو موسى تقوم حاليا بتصنيف ودراسة جميع البقايا الأثرية وخاصة المعدنية التي ستدرس في أكبر مختبر متخصص في إسبانيا والتابع للمتحف الوطني الاسباني، وذلك لمعرفة هل هذه المواد صنعت محليا أم أنها استوردت من أوروبا، فإن ثبت أنها صنعت محليا فيجب البحث عن مكان المنجم، هذا مع العلم أن هناك مناطق لاستخراج النحاس تبعد عن الموقع ما بين ٥٠ كلم و٨٠ كلم و ١٨٠ كلم؛ هذا فضلا على اكتشافنا للعديد من الحصى نسبة النحاس فيها عالية جدا وكذا حصى نسبة الرصاص فيها عالية كذلك، مما يعني انهم كانوا يعرفون ما يتوفر عليه مجالهم معرفة جيدة.

وبصورة عامة، فإن هذه الاكتشافات الأثرية ستساهم لا محالة، في إغناء النقاش العلمي حول أصل هذه الحضارة ومجال انتشارها بين أوروبا والمغرب. كما أن هذه النتائج العلمية ستعمل على إبراز دور أبناء المنطقة في تاريخ وحضارة المغرب خلال هذه المرحلة؛ هذا علاوة على البعد الحقيقي لمعرفة التغيرات التي عرفها استغلال وتدبير المجال المرتبط بمرحلة ولوج عصر المعادن، والإنفتاح على البحر الأبيض المتوسط والمحيط الأطلسي، عن طريق التبادل التجاري انطلاقا من حضارات عصر النحاس الى غاية دخول المغرب العصور التاريخية.

وهكذا أصبح هذا الموقع ذا شهرة عالمية بفضل الإكتشافات الأثرية المتميزة المستخرجة منه، وتقاطرت عليه العديد من القنوات الوطنية والأجنبية (صورة رقم١١)، كما أنه تحول في وقت قصير جدا قبلة للباحثين وطلبة الماستر والدكتوراة في الجامعات المغربية والأجنبية (صورة رقم١٢)؛ هذا علاوة على أبناء المنطقة الذين شعروا بنوع من الإفتخار ورد الإعتبار(صورة رقم ١٣)، مما دفع الجميع إلى البحث عن أنجع الحلول لإخراج هذه المنطقة المهمشة من التخلف، وخاصة الإستفادة من هذا التراث الأثري في السياحة الثقافية والتنمية البشرية المحلية.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

صورة رقم ١ موقع إيفري (=كهف أو مغارة) ن اعمر أوموسى

صورة رقم ٢ مدخل إفري ن اعمر أوموسى

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

صورة رقم ٣ رأس السهم المعروف ب: بالميلا المصنوع من البرونز المستخرج من المغارة

صورة رقم ٤ نموذج من الفخار الجرسي الشكل المكتشف في المغارة

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

صورة رقم ٥ أ قالب من العظم كان يستعمل لزخرفة الفخار الجرسي الشكل

صورة رقم ٥ ب نموذج آخر لقالب من العظم المستعمل في زخرفة الفخار الجرسي الشكل

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

صورة رقم ٦ أ استخراج بقايا بشرية لشاب من قبر يوضح طريقة الدفن

صورة رقم ٦ ب قبر لبقايا طفل

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

صورة رقم ٧ منظر آخر لبقايا بشرية للشاب المكتشف في المغارة محاط بالأحجار

صورة رقم ٨ إبرة مصنوعة من العظم مستخرجة من الموقع

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

صورة رقم ٩ مخرز من النحاس

صورة رقم ١٠ عقد مصنوع من العاج على هيئة ثعبان

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

صورة رقم ١١ اهتمام مختلف وسائل بالمكتشفات الأثرية بالموقع

صورة رقم ١٢ زيارة طلبة الماسترز والدكتوراة من الجامعات المغربية

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

صورة رقم ١٣ تلاميذ أبناء المنطقة في زيارة للموقع

صورة رقم ١٤ عملية التنقيب يشارك فيها طلبة جامعيون

صورة رقم ١٥ قطعة من العقد صنعت من ناب خنزير

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com